حكمة « جوته »

بقلم عبد الرحمن صدقي

ليست الحكمة وقفاً على الشيخوخة . ولكن الحكيم لاشك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الايام من المشاهدات والتجارب ينضم بعضها الى البعض فيسترق بها الجملة ويبلغ القمة . فاذا اضفنا الى هذا ما هو معلوم مشهور عن الالماني من انهُ لا كاتب منهم الاّ وهو بطبعه من طلاّب الفلسفة وتنّاد الاخلاق ، تجلس لنا التقدير الصحيح لحكمة جوته كبير ادبائهم وهو في السبعين من عمره الحافل المديد . وهذه الحكمة التي تعرض لآفاق الفكر جميعها من فنون وعلوم وشعر وخبرة عملية وفلسفة ودين وغير ذلك لاتنحصر في حيّز بعينه كالازهار المجففة بل هي كشجرة الفينانة تمتد اغصانها ناضرة الإيعان وتنوّر غلائلها متعددة الالوان في كل صفحة من صفحاته وفي كل سفر من اسفاره سواء أكان منظوماً او منثوراً ، مبحثاً علميًّا او نقداً فنيًّا ، قصصاً او رجعة لحياته او مسرحية من عديد مسرحياته . وجوته منال الحكيم . والذي يجعلهُ اتم تمثيلاً للحكمة هو انهُ أوتي ما لا يؤتاهُ الحكيم عادةً من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية

وتقوم حكمة جوته على انهُ لا ينفك يضم الى نفسه ما تشعّب ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقي اقطار الدائرة في المركز . فليس هو من اهل المذهب المدرسي ولا المذهب الابداعي وانما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحي ولا الوثني ولا غير ذلك من العقائد الملزمة لانهُ في المحل الأرفع الأبعد ولعني به الاقرب الى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق . فهو يستوفر ويستكثر على الدوام ومن كل شيء . وكأنما عنده سر يجمل القيم المتعاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع في عيشة واحدة بل ينضاف بعضها الى البعض فيحصل من تضاترها زيادة الكل . ولم يكن جوته في موقف سالب يترك الاشياء تقبل عليه فحسب . بل كان فعالاً موجباً يسعى لها ويجتبيها اليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجيب العجيب ان نجد بجموع هذه الاشتات الهائلة فيه كتلة متماسكة . وثمة عظمة جوته الحكيم . وليس القارىء هذا الجمع العجيب مجلوًّا فيما اختزناهُ لهُ من اسفار الحكمة في ديوانه الشرقي :

كتب التفكير والحكمة والمثل

تصدر هذه الكتب عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه هذه السن . وهي حافلة بالهداية والعبرة . ولا مشاحة في ان جوته افاد الكثير في هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب العظات لفريد الدين العطار وكتاب قابوس فضلاً عن المامه بحكم لقمان وبيدبا وغيرهما . ونحن نجتزىء بفقرة من كل سفر من اسفار جوته الثلاث على سبيل المثال :

﴿ لذة الاحسان ﴾ « ما أحلى نظرة الجارية ذات الدل وهي تغمز بطرفها ، والنديم تفتح عينه بالرضى ساعة يحتسي كأسه ، وما أحلى تسليم السيد الآمر بشملك بعطفه ، وشعاع الشمس في الخريف يتمشك بدفئه . فليكن أحلى من ذلك جميعه في نفسك هذه اللحظة الخطيفة تمتد بها كف للتقير في طلب الصدقة وتتلقى منك بالجد الجميل ما تجود به . وما أحلاها وقتئذٍ نظرة وما أحلاها تحية وما أحلاها بلاغة في السؤال . تأمل هذا فاذا أنت الكريم الجواد على الدوام »

﴿ دين التسليم ﴾ « من الحماقة أن يتعصب كلٌ لدينه . واذا صحَّ أن الاسلام هو التسليم لله لوجب أن نحيا ونموت مسلمين أجمعين »

﴿ مثل الايمان ﴾ « تحدَّرت من السماء الى لجة المحضَّ قطرة مرتجفة . فأمحت عليها الأمواج خفقاً وتعصفياً . ولكن الله جزاها عن صبر إيمانها خيراً . فوهب لقطرة المطر ثروة واعتصاماً . فاحتوتها الصدفة في حرز حريز . وأتمَّ عليها العز والجزاء الأوفى فهي اليوم على تاج مليكنا درَّة تتألق حلوة اللمح سنية البهاء »

كتاب السخط

ليس في طاقة الانسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازي نقمته . بل من الخير أن يحتال على تنفيسها ، ولاسيما ان كان حرج صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويمتاق الخيال عن تحليقه . وأمرُّ ما يعانيه الشعراء سوء التقدير فتراهم يقابلونهُ بالمغالاة بأقدارهم والمفاخرة بمزاياهم . وليس يخاف ان الناس اذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون استذاحه فيهم التواضع ثم لا يفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع ابداً حليف المصانعة وضرب من التملق مقصود بهِ الى إنامة الحسد أو الشعور بالغضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو في الظاهر تسوية وفي الباطن ترضية وكأنهُ اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة بين الناس الاَّ انكار كل كبير لنفسه وفي هذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهمَّ الاَّ اذا تأتت للكبير القدرة على ان يترضى اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منهُ اعتزازه بنفسه . ولقد كان شعراء الشرق يبسطون اللسان في ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الامراء . وانما شكواهُ من سوء التقدير من الشعب وعليهِ يصب جام نقمته وسخطه

﴿ البغض بالجملة ﴾ « اني لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه . وليس بي بغض شخص بعينهِ . فاذا كان لا بدَّ لي من البغضاء فما أنذا على الاهبة ، أبغض أصنافاً من الناس بالجملة »

﴿ اعتبارات سخيفة ﴾ « يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن أليس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذي هو فاعله ! ثم، أليس الخير لولا التسمية في الكلام هو الخير في كل حال وبالرغم من كل مقال!

أيها الحمقى ، ذروا للحكيم الواثق بحكمته أن يلذ مثلما تلتذون جنونكم بالاستهتار بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم »

﴿ ماذا في الكبر ﴾ « ما بالكم أيها المشايخ الدجاجلة ، تذمون نتنة الكبر العاتية ؟ لو شاء الله لي أن أكون دودة لكان خلقي دردة »

﴿ كيد الوضيع الرفيع ﴾ « كيف أرهبهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس في الامكان أبدع مما كان ، أو كما نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ » -

﴿ شاهد الكنود ﴾ « ما من سعيد هانىء الا بادره الجار بالتنغيص . كذلك لم يعش ذو فضل حياته العاملة الا كان هم الناس في رجمه ، فاذا ما قضى نحبه جمعوا على القبور الحجارة الوفيرة ليقيموا لتكريم هذا المنكود بهم تمثالا . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الاولى لهم ان يكتموا أمر المسكين ويدعوه في طوايا النسيان أبد الآبدين »

﴿ الدناءة ﴾ « فيم التشكي من الدناءة ، وانها في الدنيا ذات الحول والطول . هي صاحبة الامر في الشر طلبا للمنفعة ، وهي المتصرفة في العدل كما شاء لها الهوى . أفتريد أيها الحاج المتخطى خروجا على القضاء المحتوم ؟ ألا دع الصلصال والاعصار ، فلا بد من الدوار وتذرية الغبار »

كتاب الساقي

لا يمكن أن يخلو ديوان شرقي من ذكر الولع بالخمر وهوى الغلمان . ويقول جوته انهُ بمقتضى أدب العصر يتناول هذا الغرض الاخير بمنتهى الطهر . ويقدم الى ذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلم ومتعلم . وتعلق الفتى بمن يكبره سنا ليس بالظاهرة النادرة ولكن النادر هو حسن الالتفات الى الاستفادة منهُ . وليس أدل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففي هذه العلاقة تسر ذهنية الاطفال حق الثناء ولان همهم يكون منصرفا الى الشيخ المحبوب يعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته . وما لنا نقصر الكلام على سن الطفولة ، وهذي سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها في كل اطوارها حاجة الى هذه العلاقة القائمة على التقدير والاجلال . ولئن كان الصبي يستغل أحيانا عطف الشيخ لادراك رغائبه الصبيانية واشباع بداوته البريئة الا ان اعطاءه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والاغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة فانه ليطربهُ ويتصباه أن يرى الفتى الغض الطموح مأخوذا بالعجب والاعجاب برجاحة عقله وحكمة سنه في حين تنبثق طوالهُ من هذا العقل في النفس الناشئة الزكية . واليك بعض المقتطفات من هذا الكتاب :

— فلنكن سكارى جميعا . فالشباب سكر بلا خمر ، والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب ، ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل الكرم

— الخمر محرمة بلا ريب . فاذا كان لا بد من شربها فلا تشربها الا سرقا . فانك ان عاقرتم ممذوقة كنت مضاعف الاثم

— أقول غير مبالغ في القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك

انتم أيها الندامى لستم بأحسن حالاً ، فمن كان سكره غير قادر على الحب فليس يصح له شرب

— تعال أيها الغلام الحبيب . لماذا تلزم الباب ؟ كن من اليوم نديمي تكن الخمر كلها رحيقاً

— يا لك من خبيث صغير ! أبرز من الخمر على رشدي . وهذا هو المهم عندي ، لكي آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكري

— اليوم في السكور قامت في الحانة جلبة يا لها من جلبة ، صاحب الحان والندمان والمشادل والرحام . وكم من لجاج وكم من خصام ! والناي يعزف والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس في غمارها من غبطة ومن حب . ان الخلق ليعنون عليّ الامتهار وخلع العذار ولكنني مبتعد في حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر

— يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت في الاسواق . واني اشديد الاصغاء حين تنشد واني لأشد اصغاء لك حين تصمت . ولكني أحبك اعمق ما احبك حين تقباني قبلة التذكار . فان الكلام يذهب ، أما القبلة فباقية في صميم الفؤاد . ولئن كان لنظام القوافي قدرها الكبير فان خيراً منها اطالة التفكير . فانشد الناس فنوناً من النظيم واصمت صمتك البليغ مع النديم

كتاب الفرس

في هذا الكتاب يشيد جوته بذكر دين المجوس ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية فانها مع هذا عملية جد عملية . ولا غرابة في ان يتحمس جوته لتعاليم من يعبدون الله في نور الشمس وفي النار والهواء والماء وفي خصب الارض وحياة النبات . فان هذا التأليه للطبيعة يتفق واحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسي الأخيرة » لاخوانه في الدين وهو من الحياة في آخر الدروة المصورة بالنور الازلي

« اذا الشمس فوق أجنحة الفجر ذرّ قرنها ، واطلع جانب قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذي لا يرفع اليها البصر خاشعاً . لكم أحسست في حياتي المديدة مراراً لا تحصى لدى شروقها انني طارح اليها لكي اشهد الرحمن على عرشه واسبح باسمه سبحانه مسدر الوجود ورب العالمين ، ولكي اسلك الصراط المستقيم صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ، ولكي اهتدي ابد الدهر بنوره العميم . وبعد فهذي وصيتي المباركة اودعها صدور اخواني واوكلها الى صدق عزائمهم : « عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها الى وحي يوحى » . . . .

ويلي هذا تفصيل الفرائض وكلها ناطق بعبادة جوته للحياة وتقديسه الجهاد فيها

كتاب تيمور

يرى جوته ان كتاباً كهذا كان من حقه ان توضع دعائمه بعد عامين كاملين من العكوف والتوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهة هذي الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وتراعي

آفاقها . كما يجمل به تخفيفاً لفجاعتها من حين الى حين ان يظهر الاستاذ نصر الدين النديم الى جانب مولاه الطاغية المخرب . وما اكثر ما يروي الرواة من نوادره ويخص جوته بالذكر هذه النادرة :

«وكان تيمور دميم الخلقة أعور أعرج ، وفي ذات يوم والاستاذ نصر الدين بين يديه أمر تيمور بالحلاق فلما أتم حلق رأسه عرض له بالمرآة فلما رأى تيمور في المرآة قبحهُ أجهش بالبكاء وبكى الى جانبه الاستاذ . وظل الاثنان يبكيان نحو ساعتين وأقبل بعض الخلان فجعلوا يواسون تيمور ويسرون عنهُ بالحكايات حتى نسي . وكف تيمور عن بكائه ولكن الاستاذ لم يكف بل زادت عبراته انهماراً . فقال لهُ تيمور : « وبعد ، انني نظرت في المرآة فرأيت قرط قبحي ، فحزنت وانا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجواري الحسان ان اكون بهذا القبح . وانت ، ماذا يجعلك تبكي وتمضي في البكاء ؟ » فأجاب الاستاذ « إنك صادفت وجهك في المرآة مرة فلم تطق رؤيتهُ وطفقت تبكي . فاذا يكون من امري أنا المقضي عليَّ برؤية وجهك صباح مساء ، فأذا لم ابكِ فلمن البكاء» فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره

ومع ان الشاعر لم ينفسح لهُ الأجل لتحقيق ما رسمهُ لنفسه ، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرهما الا انهما في الحق حسبه جلالاً وروعةً

﴿ الشتاء وتيمور ﴾ « هذا الشتاء أنزل بهم بلاءه ، وتنفس بينهم برد انتقامه فثارت صرصراً عاتية ، وسلط عليهم زعازع زمهريره وغواشي صقيعه . ثم انحدر حتى مجلس تيمور وأهاب به مرعداً متوعداً : « على رسلك واتئد ايها الشقي ! ايها الطاغية الغشوم ! او لم يكفك القلوب ما اصطلت من عذابك واكتوت بهِ من نارك ؟ فان تك مريداً من الشياطين فانا المريد الآخر . وانك شيخ تمرَّس بالسنين وتمرَّست بهِ وانني لكذلك . وانت المريخ وانا كيوان . وكلا الكوكبين شؤم وفي اقترانهما إيذان بالويل والثبور وعظائم الأمور . وانت تهلك الأنفس وتحصد جذوتها ، ولكن رياحي أفتل برداً مما تستطيع . ولئن كانت عصائبك الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال . فقد كان ما كان ! وسترى اذا آن الاوان باذن الله شراً مما جرى . ووالله انك لست لي بكفء وهو على ما أقول شهيد . أجل والله سوف لا تغني عنك حرارة الوطيس المسجور وشواظ كانون شيئاً ، ولن يعصمك عاصم من برد الموت

﴿ قارورة العطر ﴾ « لكي يتحبب اليك الطب بالعطر العبق ويزيد في انشراحك وبهجتك ، يهلك العطار على النار العدد المديد من اكمام الورد . وليستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى اليك ، قارورة مخروطة مستدقة كسيط أناملك ، لابد لهُ من عالم منها . عالم من القوى الحيَّة التي تنبثق عنها الورود مؤذنة بهيام البليل بها وترجيعه شجيَّ اغانيه في حبِّها

فهل ترانا نذكر هذه الآلام والعطر ينغم حسنا ويزيد في متاعنا ! لكم هلكت أنفس لا عداد لها ظلماً في سبيل عظمة تيمور ! »